

## خالد عايد\*

### مختارات من مصادر التاريخ الشعبي الفلسطيني

يعتمد التاريخ الشعبي على نوعين من المصادر: المصادر المكتوبة المعهودة بمختلف اللغات، كما في الدراسات الأكاديمية، ومصادر التراث الشعبي والروايات الشفهوية من أغان وحكايات وقصائد عامية وأمثال... إلخ. هناك طبعاً عدد لا يكاد يحصى من مثل هذه الأغاني والحكايات والأقوال والأشعار التي تحكي حياة الناس في عملهم وفرحهم وأملهم وأحزانهم، وفي انكساراتهم ومقاومتهم التي لا تنكسر. إنها تسليتهم وعزاؤهم ومتعتهم المجانية بعد نهارات الكدح في مواسم القطف، وفي أعراس الصيف، وحول المواقف في ليالي الشتاء الباردة، وفيها يزرعون بذور الحكمة البسيطة المستخلصة من مرارة الحياة، وينفثون ما يعتمل في صدورهم من عشق وحنن وفرح وغضب. إنها باروميتر أحلامهم وكوابيسهم، ومزاجهم المتقلب مع تقلب الفصول وعوادي الزمن.

قطعة صغيرة من هذه السيفساء التاريخية، وتنقيتها من الغبار المتراكم فوقها على مدى الأيام، وترميم الثقوب الدقيقة التي أعملتها فيها حوادث الزمن، وصقلها بما يبرز بعض تفصيلاتها على نحو يجعل من الممكن رؤية خريطة السيفساء كاملة على نحو أوضح وأفضل.

عملية "إعادة التركيب" هذه، من وجهة نظر التاريخ الشعبي، تستوجب البحث المضني في كل زاوية وباب، عن الوقائع التاريخية الفعلية الخاصة بحياة الشعب. فبين آلاف

أياً تكن أغراض التاريخ إجمالاً (المتعة و/أو العبرة أو غير ذلك)، فإن محاولة إعادة تركيب الوقائع التاريخية تظل المهمة الملقاة على كاهل المؤرخ، أي مؤرخ، وإلى أي منهج في البحث انتمى. فاستعادة الماضي، بزخمه وتعقيداته ودقائقه كلها، مهمة مستحيلة المنال، لا في "الواقع" فحسب، بل في الكتابة التاريخية النظرية أيضاً، وأقصى منى المؤرخ هو التقاط

\* كاتب فلسطيني.

"الحرّاثين" - إذا كان يعرف هذه البيانات المتاحة نسبياً - فإنه سيستنتج بيئة الأغنية، مكانها وزمنها، أي: سياقها التاريخي. وإذا بقيت لديه ذرة من الشك، فإنه يمكنه إزالتها لدى تدقيقه في لهجة الأغنية، اللهجة التي لا تزال دارجة حتى اليوم. إنها أغنية الفلاحين في المنطقة الجبلية الوسطى من فلسطين، بين نابلس والقدس، في أواخر القرن التاسع عشر/ أوائل القرن العشرين. عندها، حين يتحقق المؤرخ من "تاريخية" الأغنية، تصبح تلك "التاريخية" مصدراً جديداً يدعم مصادر بحثه بشأن النظام الزراعي في فلسطين في أواخر العهد العثماني.

كان من الطبيعي نقل النصوص المختارة كما هي، باستثناء تدخلات لغوية طفيفة تسهّل فهم النص من دون التأثير بتاتا في جوهره وروحه، ومثل هذه النصوص هو مادة خام يتعامل المؤرخ معها كما يتعامل مع النصوص "العادية"، أي يتعامل معها بالنقد والمقابلة والمقاطعة/الدمج مع النصوص الأخرى. لكن اختيار عناوين لبعضها جاء بهدف أن تتماشى مع روح العصر، وأن تتسق مع مفهوم التاريخ الشعبي.

على سبيل المثال، بدلاً من الاكتفاء بعنوان النص الأول، "ذكر خروج المبرقع"، تمت إضافة عنوان: "ثورة الفلاحين انطلاقاً من الرملة بقيادة المبرقع في سنة ١٨٤٣". وسيجد الباحث، في ثنايا النص وفي المصادر الأخرى، أسباباً للثورة لا تقتصر على السبب المباشر (غضب "المبرقع" تميم اللخمي لأن جندياً ضرب امرأته)، وأن الثورة لم تقع في منطقة الرملة وحدها التي انطلقت شرارتها منها، بل شملت مساحة واسعة من بلاد الشام أيضاً (الجغرافيا المسماة الآن

النصوص من الحكايات والأغاني والأمثال والأشعار المروية، قد لا يجد المؤرخ سوى بضع حكايات أو أغاني أو أمثال أو قصائد ذات "شخصية تاريخية" محددة، من حيث تطور الحدث ومكانه وزمنه وبطله/أبطاله، فيضيفها إلى ما في جعبته البحثية من وقائع عن "العامة" استخلصها من مصادر "النخبة" الوفيرة. وهذا المنتج الإضافي الهامشي (marginal) من المعرفة ربما يسدّ ثغرة في التاريخ الشعبي، أو يفتح باباً له، أو يجلو صورة من صورته، فيساعد الباحث في عملية إعادة التركيب. ويظل الخيال - كما كان بعض أساتذتي في دائرة التاريخ في الجامعة الأميركية في بيروت يؤكدون - جزءاً أساسياً في هذه العملية، بما يوفره من "تصوّر" لحلقات مفقودة في التاريخ، تربط بين قطع السيفساء التاريخية.

في هدي هذا كله، فإن النصوص في الفقرات اللاحقة، اختيرت من مصادر التاريخ الشعبي، وتُبتت بترتيب زمني، من الأقدم إلى الأحدث. وهذه النصوص جميعاً ذات سياق تاريخي محدد، حتى إن لم يكن النص ذاته - أحياناً - يشتمل على بيانات عن هذا السياق. وهنا يأتي دور إمام المؤرخ بالحقبة التاريخية التي يبحث فيها، ويأتي دور المصادر الأخرى، مصادر النخبة التقليدية. أغنية "يا زارعين السمسم" هي مثال لذلك، وهي بالمناسبة من الأغاني القليلة التي لا تزال تحتفظ بكلماتها الأصلية ولحنها التراثي. فإذا كان المؤرخ يعرف متى ازدهرت زراعة السمسم في فلسطين، بحيث احتل المرتبة الثانية في المحاصيل الزراعية بعد القمح، ويعرف المنطقة التي تركزت فيها معامل عصر السمسم، ومتى نشأت فئة

هذا النص عن التمرد، يقابله نص آخر عن صورة الإقطاعي الظالم الذي يقول المثل الشعبي فيه إنه "أهلك أهل بلده حياً وميتاً". وربما تكون الأمثال هي الأكثر عدداً من سواها في الأثر الشعبي، والأكثر تناقضاً أيضاً، وقد اخترنا هذا المثل بالذات كونه يحوز مواصفات مواد التاريخ الشعبي. فهو يتناول شخصاً تاريخياً حقيقياً (الشيخ الإقطاعي عبد الله الخطيب)، ومكاناً محدداً (قرية جمزو التاريخية الواقعة بالقرب من مدينتي اللد والرملة)، أما السياق التاريخي فيمكن استشفافه من النص نفسه. علاوة على ذلك، فإن حكاية هذا المثل، على طرافتها وغرابتها، تجسد واقع العلاقات الاجتماعية بين شيخ القرية وأهلها الفلاحين في أواخر العهد العثماني.

يحتل البطل الشعبي مكانة مرموقة في وجدان الشعب وتاريخه. ومن الأمثلة لذلك قصيدة عامية من نوع "الشروقي" قيلت في وصف استشهاد أبو كباري وتمجيده. وأبو كباري هي كنية محمد محمود العديلي، من قرية بيتا الواقعة إلى الجنوب الشرقي من نابلس، وهو أحد الأبطال الشعبيين في أوائل ثلاثينيات القرن العشرين، المظلومين بالسكوت عنهم (إن لم يكن بتشويه تاريخهم)، وسيرة حياته النضالية تتداخل على أكثر من وجه مع سيرة أبو جلدة، البطل الشعبي الأوسع صيتاً في فلسطين. ومع أن هذا الأخير وجد "تغطية" واسعة لسيرته في كتابات المعاصرين الأدبية، إلا إنه وأبو كباري لم يستوفيا بعد قسطاً من حقهما في الكتابة التاريخية.<sup>1</sup>

ثمة أسماء لامعة لـ "سيدات المجتمع" الفلسطيني، تحمل لقب "حرم" هذا أو ذاك من

فلسطين وسورية والأردن ولبنان). كما سيجد بعض الخيوط التاريخية للصراع القيسي - اليميني المدمر الذي استمر في فلسطين حتى القرن العشرين، ولعلاقة هذا الصراع بالمعارضة المتواصلة للسلطة تحت شعارات ورموز دينية.

أما نص الراهب نيوفيتوس (Neophitos) فكان في الأصل بلا عنوان، كون الراهب كان يكتب حوليات يذكر فيها السنة التي وقعت الحوادث فيها، فاختر له عنوان: "ثورة/ عامية فلاحية منطقة القدس في سنة ١٨٢٦"، بدلاً من اسم "ثورة القدس" الدارج في المؤلفات التاريخية. والقصد من ذلك تأكيد الطابع الشعبي للثورة التي شارك فيها المسلمون والمسيحيون واليهود الفلسطينيون، الفلاحون والبدو والعامية من أهل القدس، ضد المستعمر الأجنبي العثماني، وإن كان مسلماً، بينما تواطأ/وقف ضدها أطراف من "النخب" الإقطاعية والأرستقراطية الدينية المدنية. أما استخدام لفظة "عامية"، فلأن مجريات الثورة وقعت في سياق انبثاق عاميات أخرى في بلاد الشام وغيرها (عامية أنطلياس في لبنان، مثلاً).

تكمن الأهمية الخاصة لنص نيوفيتوس (الكامل) في كونه النص التفصيلي الوحيد الذي يدونه شخص عايش الحوادث. وهو يمكن أن يكون جزءاً من مصادر إضافية تضع الأساس لفهم أفضل لتاريخ فلسطين الاجتماعي في القرن التاسع عشر؛ فهم يعيد الاعتبار إلى هذه الثورة بالذات، باعتبارها أول ثورة فلاحية، وطنية اجتماعية، يشارك فيها عامة الشعب، لا ثورة سنة ١٨٣٤ الإقطاعية ضد الحكم المصري، المضرجة بدماء الفلاحين.

وادي الحوارث، رجالاً ونساء، في دفاعهم عن أرضهم - ملحمة هُمّشت أيضاً. ولعل سبب هذا التهميش يعود إلى تورط واحد من أهم "رجال" فلسطين في قضية انتقال ملكية أراضي الوادي (نحو ٤٥,٠٠٠ دونم) من أهلها الأصليين إلى عائلة تيّان، ثم إلى المؤسسات الصهيونية.<sup>٢</sup>

الأغنية الأخيرة في هذه المختارات هي موال "يا ليل خلي الأسير"، وتعتبر واحدة من أوسع الأغنيات الشعبية انتشاراً حتى أيامنا هذه. ويقال إن سجيناً محكوماً بالإعدام كتبها بالفحم على جدران زنزانتة في سجن عكا ليلة إعدامه، ولا يُعرف عنه سوى اسمه الأول: عوض. لقد عرفنا قصائد وأغاني كتب كلماتها شعراء معروفون عن بعض سجناء سجن عكا، وخصوصاً محمد مجموع وعطا الزير وفؤاد حجازي، الذين أعدمتهم السلطات البريطانية في أعقاب هبة سنة ١٩٢٩. كتب إبراهيم طوقان قصيدة "الثلاثاء الحمراء"، وكتب الشاعر الشعبي نوح إبراهيم أغنية "من سجن عكا طلعت جنازة". لكن ذكر هذا الـ "عوض" لم يرد في أي كتاب تاريخ، كأن هذا الاسم هو الاسم الحركي لكل "فائر مجهول" سقط على أرض فلسطين، وما أكثر الثوار المجهولين بين الأبطال الشعبيين!

موال البطل الشعبي "عوض"، أغنية شعبية تنتشر في مواقع الإنترنت، لكن ليس بالنص نفسه، كما أن كثيراً من المواقع ينشر الأغنية مجتزأة بإسقاط الفقرة الأخيرة تماماً أو تحوير كلمة فيها. وهذه مناسبة للتنبية إلى العبث الذي يمكن أن يلحق بالنصوص الشعبية الأصلية، والذي قد يصل إلى درجة إقحام بعض النصوص وتقديمها على أنها من التراث الشعبي. وهنا يتحمل المؤرخ

رجال النخب المدنية خلال فترة الاستعمار البريطاني، لكن لا وجود لـ "بطلات شعبيات" في التاريخ الفلسطيني. ربما يبدو الأمر عادياً في مجتمع ذكوري، كالمجتمع الفلسطيني، ومع ذلك، فإن هناك وجهاً آخر للمسألة يتمثل في استحواذ النخب المدنية على التاريخ، إلى جانب استحواذها على التعليم والسياسة والاقتصاد والمجتمع. كانت النخب الفلسطينية، المدنية في الدرجة الأولى، معنية بتدوين تاريخها، تاريخ المدن أساساً، كما أنها هُمّشت في الكتابة التاريخية مناطق الريف والبادية المهْمّشة في الواقع التاريخي، على الرغم من أن هذه المناطق كانت تشكل الأكثرية الواضحة، من حيث المساحة والسكان والاقتصاد، وكذلك من حيث المساهمة في النضال الوطني ضد الاستعمار البريطاني والمشروع الاستيطاني الصهيوني. وفي هذا السياق، أغفل دور المرأة الريفية والبدوية في الإنتاج الزراعي والحيواني، الذي كان يشكل عماد الاقتصاد الفلسطيني، كما جرى إغفال دورها في النضال الوطني. وهكذا، تم إسكات صوت شواقة السالم/العوفي، وهي تغني هاتفة ونساء وادي الحوارث يرددن بعدها:

هذا الوادي وادينا | هذا الوادي وادينا

ويش جابك يا تيّان | ويش جابك يا تيّان

للأسف، لم يبقَ من الأغنية سوى هذين السطرين، ولم يرد ذكر شواقة في أي من كتب التاريخ النخبوية، مع أنها كانت رمزاً لنضال النساء الريفيات والبدويات، لا في وادي الحوارث وحده، بل في فلسطين كلها. كانت لسان حال الملحمة الرائعة التي سطرها أهل

واللهجة  
العامة واللغة الفصحى (فضلاً عن "تقطيع"  
النص بفواصل)، على ما يأتي في النصوص/  
المختارات التالية. ويكون ذلك بتحويل  
المفردات العامة قدر الإمكان إلى مفردات  
فصيحة قريبة منها، من دون الإخلال بروح  
النص الأصلي، وأيضاً بالإبقاء على المفردات  
العامة التي لا مفردات فصحى مقابلة لها  
وقريبة منها، إذ إن السياق نفسه كفيلاً  
بإيضاح المعنى للقارئ اللبيب، حتى لو لم  
يكن يعرف معنى المفردة العامة. ونرى أن  
من شأن هذه الطريقة في التدوين تقريب  
النص من فهم القارئ، من دون إغراق النص  
بالحواشي التوضيحية المتكررة التي من  
شأنها تشتت انتباه القارئ بقطع سياق  
القراءة مراراً وتكراراً، وبالتالي الوصول إلى  
عكس المراد منها.

### نصوص مختارة

١ - ثورة الفلاحين انطلاقاً من الرملة  
بقيادة المبرقع في سنة ٨٤٣

ذُكر خروج المبرقع

في هذه السنة خرج أبو حرب المبرقع  
اليمني بفلسطين، وخالف على  
المعتصم، وكان سبب خروجه أن بعض  
الجند أراد النزول في داره - وهو غائب -  
فمنعه بعض نسائه فضربها الجندي  
بسوط فأصاب ذراعها فأتت فيها، فلما  
رجع أبو حرب إلى منزله، شكت إليه  
ما فعل بها الجندي فأخذ سيفه وسار  
نحوه فقتله، ثم هرب وألبس وجهه  
برقعاً وقصد بعض جبال الأردن فأقام

الشعبي مسؤولية التنقيب عن النصوص  
الأصلية وتخليصها من أي شوائب تلحق بها  
عن قصد، أو غير قصد.

هل يعود السبب في حذف الفقرة الأخيرة  
من موال الثائر الشعبي الشهيد "عوض" إلى  
أن هذه الفقرة بالذات لا تزال تثير حفيظة  
"كبار" النخب الفلسطينية والعربية؟

قبل ختام هذه المقدمة، من الأهمية  
بمكان الإشارة إلى ضرورة مسألة "تحقيق"  
نصوص التاريخ الشعبي (على غرار تحقيق  
المخطوطات القديمة). وتبرز هذه الأهمية  
بصورة خاصة لدى وجود أكثر من نص، و/أو  
أكثر من لحن للأغنية الواحدة، الأمر الذي  
ينطبق مثلاً على أغنية "قطعن النصراويات  
مرج ابن عامر" والأغنية المرافقة لحكاية  
"الفارس أبو الهمام" الذي ينقذ حبيبته من  
أسر الإقطاعي، مثلما ينطبق على أغنيتي  
"عُ الروزنا"، و"راحت أم الغيث تجيب الرعود"،

والمناسبات التي قيلتا فيها. فقد أوصل  
البحث الأولي إلى وجود أكثر من نص ومن  
مناسبة لهاتين الأغنيتين الأخيرتين في أكثر  
من قطر عربي (فلسطين ولبنان وسورية  
والعراق ومصر: "عُ الروزنا"، وفي فلسطين  
والأردن وحوارن السورية: "راحت أم الغيث")،  
علماً بأن مثل هذه الأغاني يعود إلى ما قبل  
تاريخ تقسيم سايكس بيكو! كما أن هناك  
نصوصاً بحاجة إلى الاستكمال، مثل قصيدة  
الشاعر البدوي عودة بن موسى، من عشيرة  
السواركة، التي قالها في سنة ١٩١٣ (أي قبل  
وعد بلفور وقبل الانتداب البريطاني)، محذراً  
من خطورة الاستيطان الصهيوني في  
فلسطين.<sup>٣</sup>

وهنا أقترح استعمال "لغة عامة مفضحة"  
لدى تدوين نصوص التاريخ الشعبي،

الرملة وصار في خمسين ألفاً، فوجّه المعتصم رجاء الحضاري فقاتله وأخذ ابن بيهس أسيراً، وقتل من أصحاب المبرقع نحواً من عشرين ألفاً، وأسر المبرقع وحمله إلى سامراء.<sup>٤</sup>

## ٢ - مثل شيخ جمزو/الذي "أهلك أهل بلدو وهو طيب وهو ميت"

هذا الشيخ عبد الله الخطيب / شيخ جمزو/ باقي ظالم وأظلم منه ما فيش. هذا كل سنة / بواسطة التحصيل داريّة [مسؤولي تحصيل الضرائب] اللي من الرملة/ باقي يحصل مال الدولة خطرتين / ويقسمه بينه وبينهم. البلد/ زغيرها بكبيرها/ جطت منه / والكل يدعي عليه: الواحدة تفتح الطابون كن دعت عليه/ هذه تقلب أوقاتها وتدعي / وهذيك تدكع بزازها وتدعي.

روح يا زمان تع يا زمان / شاخ وهرم الشيخ عبد الله. لما شاف حاله استتلف / قال لمرته: نادي لي وجوه ها البلد. هذي راحت نادتهم. قاموا انجمعوا كلهم. قال الشيخ: يا قرايبي أنا موجّه ع باب كريم / ويا ما بيصير بين الناس / وأنا قسيت فيكم وظلمتكم / ويا قرايبي سامحوني وأهل السماح ملاح. قالوا: بقدي يا أبو الخطيب / إن كان ظلمتنا ولا ما ظلمتنا / الله يسامحك / التسعة في التسعين / وإحنا زلامك. قال: يا قرايبي توصاتي عليكم / إني لما بسلّم الروح / تربطوا رجلي بحبل، وتجروني داير ما يدور حوالي البلد ثلاث

به وكان يظهر بالنهار متبرقعا، فإذا جاءه أحد ذكره وأمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويذكر الخليفة وما يأتي ويعيبه، فاستجاب له قوم من فلاحى تلك الناحية. وكان يزعم أنه أموي فقال أصحابه: هذا السفيناني، فلما كثر أتباعه من هذه الصفة دعا أهل البيوتات فاستجاب له جماعة من رؤساء اليمانية، منهم رجل يقال له: ابن بيهس كان مطاعاً في أهل اليمن، ورجلان من أهل دمشق. واتصل الخبر بالمعتصم في مرضه الذي مات فيه، فسير إليه رجاء بن أيوب الحضاري في زهاء ألف رجل من الجند، فرآه في عالم كثير يبلغون مئة ألف، فكره رجاء مواعته وعسكر في مقابلته حتى كان أوان الزراعة وعمل الأرض، فانصرف من كان مع المبرقع إلى عملهم، وبقي في زهاء ألف أو ألفين. وتوفي المعتصم وولي الواثق، وثار الفتنه بدمشق على ما نذكره، فأمر الواثق رجاء بقتال من أراد الفتنه والعود إلى المبرقع، ففعل ذلك وعاد إلى المبرقع، فناجزه رجاء، فالتقى العسكران، فقال رجاء لأصحابه: ما أرى في عسكره رجلاً له شجاعة غيره، وإنه سيظهر لأصحابه ما عنده، فإذا حمل عليكم فأفرجوا له، فما لبث أن حمل المبرقع، فأفرج له أصحاب رجاء حتى جاوزهم، ثم رجع فأفرجوا له حتى أتى أصحابه، ثم حمل مرة أخرى، فلما أراد الرجوع أحاطوا به وأخذوه أسيراً.

وقيل: كان خروجه سنة ست وعشرين ومئتين، وإنه خرج بنواحي

أدوار/ مشان الله يغفر لي ذنوبي. قالوا: ما بصير إلا خاطرک يا أبو الخطيب. قام هذا ونادى مرته / وقالها: هذولا لماً أموت / الشاطر يشمت فيّ ويدعي عليّ / أمّا أنت اسمعي مني / لماً يربطوا رجليّ / أزرتني على الرملة / فرزعي الدولة.

من ساع لساع / أخذ الله وداعته. قامت أهل البلد انجمعت / ربطوا هذا وداروا إبه / مرته زرت ع الرملة تدبّ الصوت / وقالت: تعالوا شوفوا الشيخ عبد الله / شو صار فيه / أهل البلد خنقوه / وقاعدين بجرّوا فيه. المدير ركّب ثمان طاشر خيال أجواع البلد. إلا وهذولا بجرّوا فيه / وماش تامين الدور الثاني. زقطّ. زقطّ / كتّفوا سبعين زلمة من وجوه البلد / ودبّوهم في الحبس. ونزول الحمام موش مثل طلوعه يا أبو يوسف. خسروا لهم أقل وما يكون ميت ليرة ت انفكوا. هذولا طلعا / الشاطر يدعي عليه / واحد يقول: الله يهلكه / وهذاك: الله يحرقه / وهذاك: الله لا يسامحه.

أدوار/ مشان الله يغفر لي ذنوبي. قالوا: ما بصير إلا خاطرک يا أبو الخطيب. قام هذا ونادى مرته / وقالها: هذولا لماً أموت / الشاطر يشمت فيّ ويدعي عليّ / أمّا أنت اسمعي مني / لماً يربطوا رجليّ / أزرتني على الرملة / فرزعي الدولة.

من ساع لساع / أخذ الله وداعته. قامت أهل البلد انجمعت / ربطوا هذا وداروا إبه / مرته زرت ع الرملة تدبّ الصوت / وقالت: تعالوا شوفوا الشيخ عبد الله / شو صار فيه / أهل البلد خنقوه / وقاعدين بجرّوا فيه. المدير ركّب ثمان طاشر خيال أجواع البلد. إلا وهذولا بجرّوا فيه / وماش تامين الدور الثاني. زقطّ. زقطّ / كتّفوا سبعين زلمة من وجوه البلد / ودبّوهم في الحبس. ونزول الحمام موش مثل طلوعه يا أبو يوسف. خسروا لهم أقل وما يكون ميت ليرة ت انفكوا. هذولا طلعا / الشاطر يدعي عليه / واحد يقول: الله يهلكه / وهذاك: الله يحرقه / وهذاك: الله لا يسامحه.

وصارت قصته مثلاً لليوم وبكرة: "أهلك أهل بلده وهو طيب وهو ميت." °

### ٣ - ثورة/ عامية الفلاحين في منطقة

القدس في سنة ١٨٢٦

اعترض أهل بيت لحم وحلفاؤهم طريقه بتحسين بيت صفافا والقرى الأخرى المحيطة بدير مار إلياس. بعد ثلاثة أيام، اضطر الناس للتراجع أمام نيران المدفعية، فتقدّم المتسلم واتخذ موقعاً جيداً بين بيت لحم وبيت جالا.

بحلول هذا الوقت، كان معظم من هم في القدس، ممن كانوا جنوداً أو حملوا السلاح، يفكرون في التمرد. وسرعان ما ساحت لهم الفرصة ليحولوا أفكارهم إلى أفعال. وفي ٥ حزيران/ يونيو، أرسل بعض الرجال ليجلبوا البارود من المخزن في القلعة، حيث كانت كل الذخيرة مخزونة. ودخل في الوقت نفسه نحو عشرين شخصاً آخر بذريعة أخذ

كما دونها راهب قبرصي شاهد عيان (مقتطفات) سنة ١٨٢٥، حيث إن الباشا لعنة الله عليه كان ظالماً لنا، كما للفرانك والأرمن واليهود وحتى المسلمين والفلاحين، فإن الجميع على السواء كانوا يكرهونه. ولذلك، حال مغادرته، انضم أهل القدس إلى

الأسوار مع اللعنات والشتائم: "ارجع وانصرف". دهش المتسلم المسكين بهذه الحوادث غير المتوقعة ولم يدر ماذا يفعل، فأخذ يتوسل إليهم بكل تواضع أن يسمحوا له بالدخول لأخذ متعلقاته التي كانت في السرايا. لم يستمع أحد إليه ولا إلى من كانوا معه.

لم يكن لديه مكان يذهب إليه، فعاد إلى آل أبو غوش الذين أعطوه كلمة شرف بأنه يمكنه المرور بدون خوف إلى الرملة التي كانت تحت قيادة عبد الله باشا.. ترك المدفعين لدى أبو غوش وتابع مع رجاله طريقهم إلى الرملة حيث استقبلهم متسلمها.

لم يتوقف أهل القدس عند حد رفض دخول المتسلم إلى القدس، بل إنهم قيّدوا حراس القلعة والسرايا وزجوا بهم في السجن. جرى تجريد كل المسلمين العثمانيين والألبان من السلاح وأخرجوهم من القدس، بمن فيهم حسين بك كافالالي Hussein Bey Kavallali الذي عاش هناك اثني عشر عاماً.

إن أهل القدس، وقد غدوا الآن سادة أنفسهم، قد أصبحوا مستقلين للغاية؛ تصرفوا جميعهم كما الأعيان والزعماء. بيد أن الرجال الأكثر حكمة اجتمعوا فيما بعد وعيّنوا قادة للمدينة اثنين من أكثر الأعيان نفوذاً. كان الأول هو يوسف عرب جبجي آشي، وكان الثاني أحمد آغا (العسلي). أعفي أهل بيت لحم والعبدية وسكان القرى المحيطة بالقدس، وحتى المسيحيين، من معظم ضرائب الأعشار. وتنفست

ذخيرة. انقضوا على الحارس واستولوا على مفتاح المخزن، ثم انقضوا على الرجال العشرة الآخرين وجردوهم من السلاح وأوثقوهم واحتجزوهم في غرفة. واندفع بعضهم إلى برج القلعة وأخذوا بالهتاف فرحين، ودعوا الناس للانضمام إلى الثورة. وبسرعة سلحوا آخرين ووضعوا حارساً على باب القلعة. وأخذ بعض الناس، وقد رأوا أن أمانهم قد تحققت، يركضون عبر أسواق المدينة يستحثون الكبار والصغار سواء بسواء على حمل السلاح، في حين أسرع آخرون لحراسة بوابات المدينة للحيلولة دون دخول جنود المتسلم لدى عودتهم.

شاهد مسلمو القدس بكامل سلاحهم يتحركون على الأسوار يدعون إلى الكفاح كل من هبّ ودبّ ويطلقون النار عشوائياً في الهواء. أمّا الذين تجمعوا في القلعة فقد رفعوا الأعلام على البرج، وهم يغنون ويرددون هتافات الانتصار. وجهّزوا المدفعية لمهاجمة المتسلم الذي كان في هذه الأثناء يسمع هو وجنوده دويّ البنادق الذي لا يتوقف في القلعة وعلى أسوار القدس. وعندما نظر خلال تلسكوبه رأى الأعلام (السنجق والبيارق) على برج القلعة فاعتقد أن اليونان قد وصلوا لاحتلال القدس. عاد بهدوء أخذاً معه المدفعية والجنود والذين تجنّبوا من القدس. ولما اقترب من المدينة عرف حقيقة الأمر. أصابه شيء من الخوف وتوجّه من فورهِ إلى باب داود بقصد دخول المدينة. لكنه مغتماً سمع وجنوده الكلام اللاذع الذي انهال عليه من



هدايا معينة. وهكذا سحب الكيخيا آل أبو غوش من التحالف مع القدس ومع الفلاحين. وبناء على ذلك، خرج من الرملة وعبر منطقة أبو غوش وممراتهم الضيقة، وعندما وصل القدس أقام معسكره مقابل القلعة بالقرب من كنيسة مار جورجيوس.

قبل وصوله، كان أهل القدس قد أشركوا بعض المسيحيين واليهود في سدّ أبواب المدينة بالحجار. كان واضحاً أنهم قرروا المقاومة بشدة. وعندما رأى الكيخيا ذلك، كتب إليهم في البداية بطريقة سلمية وودية، طالباً منهم قبول بعض الجنود في القلعة كرمز خضوع للسلطان، واعداء إياهم بأن يديروا شؤونهم بأنفسهم. كما أرسل إليهم رسائل عبد الله باشا الإرشادية التي تضمنت العرض نفسه. لكن عندما قرأ رجال القدس البواصل هذه الرسائل، لم يبدؤ عليهم أي ميل للاستسلام، وردّوا عليهم بأنهم أقسموا مراراً وتكراراً ألا يقبلوا في المدينة من جديد أي أجنبي أو غريب (بمعنى أي عثماني أو الباني)، ولذلك فإنهم كانوا مستعدين لأن يموتوا أحراراً على أن يقبلوا نير الغريب، مسلماً كان أو غير مسلم. وكتب الكيخيا إليهم مجدداً مشيراً إلى النتائج الكارثية التي قد تترتب على عصيانهم، إلى النتائج الوخيمة للحرب. ظل جوابهم على ما كان عليه، مع بعض الإضافات.

انتظر ليومين ولم يعثر علي أي بديل، فأمر بفتح نيران المدفعية. أطلقت النيران بصورة متقطعة، في الهواء بداية ثم على القلعة. ظن أن المدافعين

الأخوية بشيء من الحرية. فمع أنه ظلوا يطالبون بدفع المال، لم يكن المال مبلغاً ضخماً ومفرباً كما في الأيام السابقة. غير أننا لم نتخلص من دفع الـ ٦٠ ألف قرش المعتادة، لأن والي دمشق طالب به سراً وأعطيناه صكاً به إلى غبطته بطرك القدس في إستانبول...

حاول أهل القدس الصالحون بعد أن انتصروا في التمرد أن يخفوا إثمهم، وأن يحافظوا على الحرية التي عشقوها. بعثوا رسائل إلى محمد علي باشا في مصر وعبد الله باشا، وإلى مستشاري السلطان يشرحون فيها أفعالهم، لكنهم لم يتمتعوا بحريتهم طويلاً، لأن كل واحد تصرف على هواه وعمت الفوضى. وعندما علم السلطان محمود بذلك كتب إلى أهل القدس بأن يخضعوا لوالي دمشق ويطيعوه كما في الماضي. لم يستمعوا له، إلى أن ثار غضبه واستخدم القوة حتى ضد مواطني القدس الشريف....

في تشرين الأول / أكتوبر من سنة ١٨٢٦، كان السلطان محمود بالغ الانشغال بمجزرة الإنكشارية، وعندما علم بأفعال مسلمي القدس البغيضة، كتب رسالة قاسية إلى عبد الله باشا يأمره فيها بأن يأخذ جيشه إلى القدس ويخضع الخونة. حشد الباشا ألفي رجل فقط وأرسلهم مع الكيخيا تبعه. أخذوا معهم سبعة مدافع، أحدها مدفع طويل المدى.

توقف الكيخيا في الرملة وبدأ مراسلات مع آل أبو غوش الذين أعطوا كلمتهم بالسماح بمروره مقابل تلقي

كانوا أول من ثار، وخشوا أن يواجهوا عقوبة الإعدام بسبب ذلك. وتم التوصل إلى إجماع في الرأي على أن يختبروا عروض الكيخيا أولاً. لذا، فتحوا باب داود، وتوجّه بعض كبار السن إلى المعسكر حيث جرى استقبالهم بكثير من الترحاب وبفرح عظيم. وبإيجاز، وعدهم الكيخيا مقسماً اليمين بعفو يشمل الجميع. كما تم الاتفاق على أنهم والفلاحين سيدفعون في المستقبل الضريبة المحددة قديماً ولا شيء زيادة عليها؛ وألاً تتدخل حامية القلعة بتاتاً في السياسة أو في أي شأن آخر. وأخيراً، أقسموا عهداً للأطمئنان وقرأوا الفاتحة، كما كانت عادة المسلمين العرب. وعاد كبار السن راضين ونقلوا إلى الآخرين شروط الاستسلام. وافق الجميع على هذه الشروط. كان الذين في القلعة مرتابين، ولم يريدوا الخروج منها، لكن بقية الناس أقنعوهم ووافقوا على المغادرة شريطة أن يُسمح لهم بأن ينقلوا إلى بيوتهم متعلقاتهم التي كانت في القلعة. وطلبوا مدة ثلاثة أيام ليقوموا بذلك، وتمت الموافقة على طلبهم.

وفيما كانوا يأخذون متعلقاتهم، نقلوا مخازن الغذاء التي كانت في القلعة، مثل الذرة وما إليها، كما نقلوا جزءاً من المواد الحربية، مثل ملح البارود والرصاص، وأخفوه في أقباء (جمع قبو) بيوتهم: أخذ القادة أثمن أشياءهم إلى الأديرة، وأخفوها هناك حفاظاً على سلامتها.<sup>٧</sup>

عن المدينة سيفقدون شجاعتهم، لكن الأمر لم يكن كذلك، إذ إنهم جهزوا المدفعية وردوا على النار بالمثل. غير أنهم لم يتمكنوا من إصابة المعسكر لأنه كان منصوباً خلف التل على نحو ما. كانت أسوار القلعة متينة وقاومت بسهولة قذائف مدفعية عبد الله التي كانت صغيرة. ظلت القذائف تنهمر بصورة متواصلة طوال سبعة أيام لكنها لم تكن فعالة، لأن المباني الحجرية للقلعة كانت لها سقفون قنطرية الشكل، ولأنها كانت مغطاة بالأخشاب والقصب والتراب. أبلغ الكيخيا عبد الله باشا بالأمر، فأرسل هذا مدفعية أثقل يمكنها أن تطلق قذائف من زنة أربعين أوقية. تم نصب مدفع على جبل الزيتون لقصف القلعة. ولما كانت المسافة بعيدة فكان بدون فائدة، لذلك توقفوا عن قصف القلعة وفتحوا النار على منازل الأعيان.

تبع ذلك انشقاق في صفوف مسلمي المدينة، وانقسموا إلى فريقين. لم يكونوا معتادين على الحصار، وبما أنه جاء فجأة فإن الفقراء كانوا في موقف صعب بسبب عدم تمكنهم من الحصول على الغذاء الذي كان يأتي من خارج المدينة.

أرعبت القذائف والرصاص النساء والأطفال، وبدأ كثيرون منهم يتذمرون ويلعنون الأعيان والذين في القلعة. وقعت أعمال شغب ودار كلام على أن من الأفضل الاستسلام. وجرى عرض هذا الاقتراح على من هم في القلعة فلم يوافقوا في بادئ الأمر، لأنهم

## ٤ - أغنية يا زارعين السمسم

يا زارعين السمسم  
يا زارعين السمسم  
خلي السمسم على أمو  
خلي السمسم على أمو  
واللي يهوى وما يوخذ  
واللي يهوى وما يوخذ  
لأخلي القرد يزمو..  
لأخلي القرد يزمو

يا زارعين السمسم..

يا زارعين السمسم  
خلي السمسم ع أجراسو  
خلي السمسم ع أجراسو  
واللي يهوى وما يوخذ  
واللي يهوى وما يوخذ  
كبوا السكن ع راسو  
كبوا السكن ع راسو

بتناديني يا حراث

بتناديني يا حراث  
ماني حراث أبوك  
ماني حراث أبوك

كاعد ببذر بالزرعات

كاعد ببذر بالزرعات  
تأعمر أرض أبوك  
تأعمر أرض أبوك

ما قلت لك يا عمّة

ما قلت لك يا عمّة

الديك لا تقنينا

الديك لا تقنينا

يكعد حبيبي سروة

يكعد حبيبي سروة

والنوم يفارق عينا

والنوم يفارق عينا

يا زارعين السمسم

يا زارعين السمسم

خلي السمسم على أمو

خلي السمسم على أمو

واللي يهوى وما يوخذ

واللي يهوى وما يوخذ

لأخلي القرد يزمو

لأخلي القرد يزمو<sup>٨</sup>

## ٥ - قصيدة تروي استشهاد البطل

## الشعبي أبو كباري

أول كلامي في مديح محمدا

الهاشمي سيد ولد عدنان

ليلة الثماني من ربيع الأمجد

نهار الثلاثاء كنت وأنا وفرحان

فرحان من ذكر الإله تعبدا

يقرا ويتلو سورة الرحمن

إلا بطارش هاللي قالوا قد بدا

ما عندك علوم الذي قد كان

قلت له والجسم مني قد تبدا

علوم خير تكون يا إنسان

قال لي على علم منه مؤكدا

وحياة ربي مكوّن الأكوان

قال له حميدة انهضت شيلك عاليدا  
من فوق ظهري وأوصلك الأوطان  
وأجيب لك خطيب قاري معبدا  
وازرع ع قبرك شجرة الريحان  
قال له أبو ياسين راح اللي غدا  
وقع القدر صار البصر عميان  
واختم كلامي بالنبي المصطفى  
المخصوص بالقرآن<sup>9</sup>

#### ٦ - قصيدة/موال شاعر مجهول

محكوم بالإعدام، على جدران زنزانه

يا ليل خلّي الأسيرت يكمل نواحو  
رايح يفيق الفجر ويرفرف جناحو  
ت يمرجح المشنوق في هبة رياحو  
وعيون في الزنازين بالسرّما باحو

يا ليل وقّف ت فضّي كل حسرائي  
يمكن نسيت مين أنا ونسيت أهاتي  
يا حيف كيف انقضت بيدك ساعاتي  
شملّ الحبايب ضاع واتكسروا قداحو

لا تظن دمعي خوف دمعي على أوطاني  
ع كمشة زغاليل بالبيت جوعاني  
مين راح يطعمها بعدني.. وإخواني  
اثنين قبلي شباب ع المشنقة راحوا

وأم أولادي كيف راح تقضي نهارها  
ويلها عليّ أو ويلها على زغارها  
ياريتني خلّيت في إيدها سوارها  
يوم الـ دعاني الحرب تـ أشترى سلاحو

شفت أبو كباري بالسراي ممددا  
حوله العساكر ناصبة الميدان  
لما سمعت الخبر عقلي قد غدا  
وأضحيت كأني من الخمر سكران  
والله من علم علي قد بدا  
فيه أخبار بالشوّم والأحزان  
رحت ع السراي في حال الردا  
قام النوباتشي بالربع ناداني  
قال لي على بغلة جابوه ممددا  
طافون فيه ساحة الميدان  
ألويت راسي حتى أسائل وأنشدا  
يا دمع عيني تشوفها غدران  
رحت على السبيطار في حال الردا  
أرميت نفسي ع الطبيب أهداني  
شفت على تخت الرويد ممددا  
والدم جاري مبلل القمصان  
ياحيف سبع الغاب كرم أمجدا  
يصبح دفين بتربة الوهدان  
كل البلد تبكي عليه وتتمجدا  
تبكي الرجال وتنحب النسوان  
شواربه جنح الغراب مرقدنا  
وعيوننه تشعل كبرق نيسان  
ربطوا للضباط هم في المبتدا  
طلعوا دورية عاد ع البلدان  
راح الخبر لعابدين مؤكدا  
اطلع لهم عسكر نسل شيطان  
حط الموزر ع جنوب الجودا  
والواحد منهم ما علم بالتاني  
قال أبو كباري لحميدة تمدا  
لنحط فيهم شعلة النيران

احنا اللي نحمي الوطن ونبوّس  
جراحو<sup>١٠</sup> ■

ظنّيت لنا كبار تمشي وراها رجال  
تخسى الكبار إن كان هيك الكبار أنذال  
والله اللي عاروسهم ما تصلح لنا نعال

## المصادر

- ١ خالد عايد، "قصة الثائر أبو جلدة: بطل التاريخ الشعبي بين شطط الروائي وخلل الكتابة التاريخية"، *مجلة الدراسات الفلسطينية*، العدد ١٠٤ (خريف ٢٠١٥)، ص ١٧٤-١٨٠.
- ٢ Raya Adler (Cohen), "The Tenants of Wadi Hawareth: Another View of the Land Question in Palestine", *International Journal of Middle East Studies*, vol. 20, no. 2 (May 1988), pp. 197-220.
- ٣ وردت بضعة أبيات فقط من هذه القصيدة في: وليد الخالدي، "دراسات فلسطينية: مجموعة أبحاث وُضعت تكريماً للدكتور قسطنطين زريق"، تحرير هشام نشابة (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٨)، ص ٨٠.
- ٤ ابن الأثير، "الكامل في التاريخ - المجلد السادس" (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٧)، ص ٦٩-٧٠.
- ٥ نمر سرحان، "أرشيف الفولكلور الفلسطيني - الجزء الثالث: نصوص من الأدب الشعبي" (عمّان: دائرة الإعلام والثقافة، منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٨٥)، ص ٢٧ - ٢٩.
- وقد أجرينا تعديلات طفيفة على بعض المفردات لا تمس مضمون النص أو روحه، تسهيلاً لفهمه من دون شروح لهذه المفردات.
- ٦ كان لدى أولاد أبو غوش، منذ زمن السلطان سليمان القانوني حتى سنة ١٨٣٤، امتياز حماية الطريق من الرملة إلى القدس... كانوا يتلقون تسعين بارة "غفر" عن الأجنبي من أي دين وقومية، وقد ألغاهها محمد علي باشا في سنة ١٨٣٤.
- ٧ S. N. Spyridon, *Extracts from Annals of Palestine, 1821-1841: Manuscript/Neophitos of Cyprus*, translated from the Greek by S.N Spyridon (Jerusalem: Syrian Orphanage Press, 1938).
- ٨ توجد هذه الأغنية وكلماتها في عدة مواقع في الإنترنت. ومع أن لحن الأغنية واحد في مختلف المواقع كونه لحناً تراثياً معروفاً، فإن نص كلمات الأغنية يختلف بعض الشيء من موقع إلى آخر. وقد استنسبنا أن نختار الكلمات التي أوردناها هنا لأنها الأكثر شيوعاً.
- ٩ انظر: حسن الياش، "الأغنية الشعبية الفلسطينية" (دمشق: دار الجليل للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢، ١٩٨٧)، ص ٦٤ - ٦٥. وقد اعتمدنا نصّ القصيدة في هذه الطبعة الثانية من الكتاب مفترضين أنه الأدق والأكمل، مع وجود اختلافات أساسية بينه وبين الطبعة الأولى الصادرة في سنة ١٩٧٩. ومع ذلك، يظل النص بحاجة إلى مزيد من "التحقيق".
- ١٠ انظر القصيدة في موقع "شبكة فلسطين للحوار"، في الرابط الإلكتروني التالي:  
<https://www.paldf.net/forum/showthread.php?t=954511>